كُتّاب المعاريض بين الحقيقة والدّعاوى الكيديّة

عوض نفّاع الرّحيلي

يوم كانت الأمية تضرب أطنابها بين الناس كان ينتشر كتاب المعاريض في الشوارع وأمام المحاكم والشرطة وغيرها من الدوائر الحكومية وكان شارع العينية بالمدينة مركزا لأهم هؤلاء الكتاب حيث يتجه إليهم الناس من كافة المدن والقرى والهجر وبالرغم من ان الناس في ذلك الوقت يطبقون المثل القائل: العاقل خصم نفسه –حيث يتدارسون فيما بينهم بعض القضايا التي يختلفون حولها ولكن بمنطق العقل والمعقول يقتنعون فيما يجمعون عليه إلا ان اختلاف عقول الناس وعدم قبولهم بالواقع فيما بعد وبالتالي محاولة البعض المماطلة والحصول على حقوق لا يستحقونها هو ما دفعهم الى عدم القبول بما يجمعون عليه لذلك لجأ الكثير منهم الى المحاكم واقسام الشرطة لإجبارهم على الاعتراف بحقوقهم وتسليمها لهم وفي ضوء هذه المؤشرات التي بدأت تظهر عليه ظهر كتاب المعاريض وهم يجلسون في الشوارع على حنابل وصناديق ومكاتب وهم يتوشحون باللباس التقليدي بالرغم من ان مؤهلات البعض منهم لا تتعدى فك الحرف الا انهم استطاعوا ان يفرضوا انفسهم على الناس وبأنه لا غناء عنهم وهم يرددون بعض الابيات الشعرية والحكم العربية القديمة ومقتطفات من بعض القضايا التي كسبها من سبق ان كتبوا لهم معاريض وعلى مكاتبهم بعض من الأقلام المختلفة وأكوام من الأوراق المسطرة وعلبة تحتوي على الحبر وغيرها وذلك دليلاً على قوتهم واستعداداتهم لهذه المهام وقد يأخذون منها رؤوس أقلام يستلون أقلامهم ويبدأون في الحشو في الكلام على اوراق لا تتجاوز الثلاث وريقات ويعيدون قراءتها عليهم وهم يتظاهرون بالحزن والآلام بل بعضهم تعمد البكاء ليبرهن لهم على قوة ما كتبه وتأثيره على المسؤول الذي وجه اليه هذا الاستدعاء وبالرغم من ان الكثيرين يعلمون بأنه لا يوجد لهم حق يمكن أن يكتسبوه من رفعهم لمثل هذه المعاريض الا انهم يعتقدون ان من بين هؤلاء الكتاب ما يمكن له من قلب هذه القضية رأسا على عقب والحصول على ما ليس له به حق فانتعش الاقبال على هؤلاء الكتاب من قبل الناس واصبحت تجارة رائجة ،وكسب هؤلاء سمعة وشهرة عالية بين المواطنين ويشار اليهم بالبنان ويخشاهم كثير من الناس ويشاع بينهم بأن أحد هؤلاء الكتاب قد تم منعه من الكتابة وذلك لقوته وقلب الباطل حقا حتى يتمنى البعض القرب منهم والتعرف عليهم وخطب ودهم حتى يمكن الاستفادة من هذه الخبرة الخارقة فيما لو حصل لديه قضايا له أو لأحد اقاربه يمكن الاستعانة به وبنفوذه وبعد مرور اكثر من خمسين عاماً تنبهت بعض الادارات الى انه من بين ما يرفع اليها من بعض القضايا بعض من الدعاوى الكيدية لذلك اخذت بعض التعهدات الشخصية على كل متقدم بأن يقر ويعترف بأن كل ما ذكره في استدعائه هو صحيح واذا ظهر خلاف ذلك يكون عرضة للجزاء وأشد العقوبة .

أن تقرأ نعيَكَ وأنتَ حيٌّ!

أحمد كمال زكي

هل جرّبت أن تقرأ نعيَكَ وأنت حيٌّ؟

هل شعرت بالحزن القاسي على نفسك؟ وكادت الدموع تقفز من عينيك، وأنت تقرأ رثاءك؟.

هذا تمامًا ما شعرت به وأنا أقرأ مقالاً عن وفاة الناقد الدكتور أحمد كمال زكي، الذي شاء القدر أن يربطني به دون أن نلتقي، ولو مرة واحدة؛ رغم أنني أحمل اسمه الثلاثي، وقد أسفت –كما أسف الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في مقاله بجريدة «الأهرام» المصرية– : «أن يكون الدكتور أحمد كمال زكي اسمًا مجهولاً أو شبه مجهول لدى عامة القرّاء»، فلم يحظَ خبر وفاته بالاهتمام من الصحف سواء المصرية أو العربية.. وكما ذكرت سلفًا فقد جمع القدر بيني وبين الدكتور الراحل في الاسم الثلاثي؛ لذلك طالبني عدد كبير من أصدقائي بتغيير اسمي هذا حتى لا يحدث التباس مع اسمه، وليس هذا سهلاً – بالطبع – خاصة أنني عندما بدأت نشر إبداعاتي عام ١٩٩٠م لم يكن الدكتور أحمد كمال زكي موجودًا في مصر، ولم يكن له ذكر سوى في بطون الكتب الأكاديمية حتى أن عددًا كبيرًا من الأدباء لم يكونوا يعرفون اسمه..لذلك لم يعترض أحد على نشر إبداعاتي باسمي هذا.. لكن بعد عودة الدكتور أحمد كمال زكي إلى مصر عام ٢٠٠٠ تقريبًا؛ أي بعد عشر سنوات من بداية قيامي بنشر أعمالي الإبداعية باسمي الثلاثي . بدأ البعض يطالبونني بتغيير اسمي.. هكذا ببساطة!!

والدكتور أحمد كمال زكي – لمن لا يعرف – من روّاد قصيدة التفعيلة، وأحد مؤسسي الجمعية المصرية للنقد الأدبي، وقد اختار الابتعاد عن الحياة الثقافية والتفرغ للعمل الأكاديمي، حيث كان يعمل أستاذًا للأدب المقارن في كلية الآداب بجامعة عين شمس، ورأس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة لفترة، لكنه استقال منها وآثر العودة إلى عزلته الاختيارية.

ولا أبالغ إذا قلت إنني كنت متورطًا في مسألة تشابه الاسم هذه، لكن التغيير ليس أمرًا هينًا؛ فقد كنت – و ما زلت – أرى أن الاسم يتكون مع الشخصية وينمو وينضج معها؛ لذلك فالاستغناء عنه شكل من أشكال الخروج من الذات والتنصل من حياة للدخول في حياة أخرى مغايرة، حتى لو اقتصر هذا الاستغناء على مجرد تغيير بسيط في الاسم من ثلاثي إلى ثنائي!

لذلك كانت الاستجابة إلى الذين يطالبونني بتغيير اسمي بمثابة التنصل من شخصيتي وتكويني الثقافي والإنساني، فضلاً عن أن هذه الاستجابة ستكون بمثابة تنازل عن أعمالي التي نشرتها في دوريات مصرية وعربية مختلفة طوال عشر سنوات، وبالتالي نشر كتبي بشكل منقطع عما فات

وكأنني نبت شيطاني ظهر فجأة بلا مقدمات!

و لا أخفي – رغم ذلك – أنني كنت على وشك ارتكاب هذا التغيير.. لكن القدر تدخل مرة أخرى ليمنع هذه الخطوة، خاصة بعد أن حصلت على موافقة الدكتور أحمد كمال زكي نفسه على استمراري في استخدام اسمي الثلاثي دون تغيير، بل وتقديمه أول ديوان شعري لي!

كان هذا نهاية عام ٢٠٠٠ م، كنت أحضر وقتها لنشر أول ديوان شعري لي، وكانت تراودني فكرة حلمت بها كثيرًا، وهي أن يقدم الدكتور أحمد كمال زكي لديواني الأول .. واتصلت فعلاً بالدكتور أحمد في بيته، وكانت المحادثة عكس توقعي، فقد كان –رحمه الله– ودودًا ومهذبًا وعطوفًا بدرجة أدهشتني، وكان متفهمًا

وكريمًا لدرجة شجعتني على أن أطلب منه أن يكتب لي مقدمة لديواني الأول،

ولم يمانع الدكتور أحمد، وحدد لي مكانًا ألتقيه فيه لأعطيه الديوان حتى يقرأه، ويكتب مقدمته، وشكرته كثيرًا، وشعرت بعد المكالمة أن همًّا ثقيلاً انزاح من على صدري، ولكن في الوقت نفسه كنت أشعر أنني لا بد أن أقابل هذا التسامح وهذه الأخلاق الراقية بمثلها؛ لذلك قررت أن أغيّر اسمي، وأن أصدر ديواني باسم (أحمد كمال).. لكن القدر كان له رأي آخر!

فقد أرجأت مقابلة الدكتور أحمد كمال زكي لدخول عيد الفطر، وسافرت كعادتي لحضور العيد مع أهلي في محافظة بني سويف بصعيد مصر، وفي ليلة عودتي إلى القاهرة، وتحديدًا في الثالثة فجر ثالث أيام العيد، الموافق ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٠، اختطف الموت أبي–رحمه الله– وكانت المرة الأولى التي ألتقي فيها الموت وجهًا لوجه، وكان لقاءً مرجفًا لم أنسه حتى الآن، ولم أخرج من حالة الذهول التي أدخلني الموت فيها إلاّ بعد فترة طويلة، شعرت بعدها أنني فقدت حرية التصرف في اسمي؛ فقد أصبح الأمر متعلقًا بأبي الذي غيّبه الموت؛ لذلك تراجعت عن فكرة تغيير الاسم، وصدر الديوان بعنوان «اشتعالات الوداع» عام ٢٠٠٣ من الهيئة العامة لقصور الثقافة، وفي العام نفسه صدرت مجموعتي القصصية «وخز كان» من المجلس الأعلى للثقافة، ولم أتصل بالدكتور أحمد كمال زكي مرة أخرى، ولم أهده حتى نسخة لا من الديوان ولا من المجموعة القصصية!.

وقد فوجئت أن الدكتور أحمد كمال زكي غادر دنيانا دون ضجيج، كما اختار أن يعيش آخر سنوات حياته دون ضجيج، ولم يلتفت أحد إلى رحيله، ولم أقرأ خبرًا واحدًا – للأسف الشديد – عن رحيل الناقد الشاعر الرائد الكبير، لا في مصر – بلده – ولا في الدول العربية، خاصة السعودية التي قضى فيها عددًا من السنين ساهم خلالها في إثراء الحياة الثقافية بها، وترجم ذلك إلى كتاب هو «شعراء السعودية المعاصرون»، هذا في الوقت الذي ضجت فيه وسائل الإعلام المقروءة أو المرئية أو حتى المسموعة بخبر وفاة الفنان الفلاني، أو النجم العلاني!

رحم الله الدكتور أحمد كمال زكي، الذي عاش كما يليق بمبدع وناقد محترم، احترم نفسه، واحترم فنه في زمن لم يعد فيه مكان للمحترمين!.

*أديب مصري ، يقيم بالمملكة العربية السعودية، حيث يعمل صحفيًا بجريدة "اليوم".